التأملِ ومُواظبةٍ على التدبّـُر وإلى همّـَةٍ تأبى لك أن تقنعَ إلا بالتـّمام وأن تـَرْبـَعَ إلاّـَ بعدَ بلوغِ الغاية .

ومتى جَشِمْتَ ذلك وأبيتَ إلا أن تكونَ هنالك فقد أممتَ إلى غرضٍ كريم وتعرّـَضتَ لأمرٍ جَسيم وآثرتَ التي هي أتمّـُ لدينكَ وفضلكَ وأنبلُ عندَ ذوي العقول الرّاجحة لك . وذلك أن تعرفَ حُجّـَةَ ا تعالى منَ الوجهِ الذي هو أضوأُ لها وأنوهُ لها وأخلقُ بأن يزدادَ نورُها سُطوعاً وكوكبُها طُلوعاً وأن تسلكَ إليها الطريقَ الذي هو آمـَنُ لكَ منَ الشـّك وأبعدُ منَ الرّـَيب وأصحّـُ لليقين وأحرى بأن يُبلـّغـَك قاصِيةَ التبيين .

واعلمْ أنه لا سبيلَ إلى أن تعرفَ صحّـَةَ هذه الجملة حتى يبلغَ القولُ غايتـَه وينتهيَ إلى آخِرِ ما أردتُ جمعـَهُ لك وتصويرَهُ في نفسك وتقريرَهُ عندك إلا أنّ هاهُنا نُكتةً إنْ أنتَ تأمّـَلتـَها تأمّـُلَ المتثبّـَت ونظرتَ فيها نظرَ المُتـَأنـّي رجوتُ أن يـَحْسُنَ ظـَنـّكَ وأن تنشـَطَ للإِصغاءِ إلى ما أُورِدهُ عليك . وهي أنـّا إذا سُقنا دليلَ الإِعجازِ فقلنا : لولا أنـّهم حين سَمعوا القرآن وحين تُحُدّـُوا إلى معارضتهِ سمعوا كلاماً لم يـَسمعوا قطّـُ مثلـَه وأنهم قد رازوا أنفسَهم فأحسّـُوا بالعجزِ عن أن يأتوا بما يُوازيهِ أو يُدانيهِ أو يقعَ قريباً منه لكان مُحالاً أن يـَدعوا معارضتـَه وقد تُحُدّـُوا إليه وقُرِّـَعُوا فيه وطُولبوا به وأن يتعرضُوا لشـَبا الأسنّـَة ويقتحموا مواردَ الموت فقيلَ لنا : قد سَمعنا ما قلتم فـَخبـَرّـُونا عنهم عـَمّا ذا عـَجزوا أعن مـَعانٍ في دِقّـَةِ معـَانيهِ وحُسنها وصِحّـَتها في العقول أم عن ألفاظٍ مثلِ ألفاظه فإنْ قلتم عنِ الألفاظ فماذا أعجزهُم منَ اللفظ أم ما بهرهُم منه فقلنا : أعجزَتْهُم مزايا ظهرتْ لهم في نظمهِ وخصائصُ صادفوها في سياقِ لفظهِ وبدائعُ راعتهم من مبادىءَ آيهِ ومقاطِعها ومجاري ألفاظِها ومواقعها وفي مضربِ كلّ مثلٍ ومساقِ كلّ خبرٍ وصورةِ كلّ عظةٍ وتنبيهٍ وإعلامٍ وتذكيرٍ وترغيبِ وترهيبٍ ومع كلّ حُجةٍ وبُرهانٍ وصفةٍ وتبيان .

وبـَهرهُم أنـّهم تأمّـَلوهُ سورةً سورةً